امرأة مصرية، تتزعم مظاهرة

فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى

بقلم
دكتور عبد المنعم ماجد
أستاذ التاريخ الإسلامى
ورئيس قسم التاريخ
بآداب عين شمس

كان النيل دائماً شغل مصر الشاغل؛ على مدى الزمن؛ ولم تكن تستطيع أبداً أن تتجاهل فيضانه؛ بل كانت تنتظره بفروغ صبر إلى أن يوافى فى كل عام؛ وترتفع مياهه إلى منسوبها الكافى؛ لكى تسقى أرض مصر، وبالتالى تستقبل البلاد الخير؛ عندئذ يحتفل المصريون احتفالا كبيراً «بوفاء»[1] النيل.

وقد اتخذ هذا الاحتفال مظاهر متعددة؛ فقديماً اعتبر النيل إلها كبيراً، وقيل إن المصريين كانوا يعمدون إلى دمية أو جارية بكر، من أجمل فتيات مصر؛ ليلقوها فى النيل[2]، بعد أن يلبسوها أفضل الحلل والثياب؛ كقربان لهذا الإله؛ حتى يفيض بخيره على البلاد. فلما جاء العرب، كانوا يكتفون فى احتفالهم، بإلقاء بطاقة فى النيل، كُتبت فيها بعض الصيغ الدينية، واستمر ذلك إلى أن جاء الفاطميون؛ فأصبح الخليفة يركب بهيئة المواكب الرسمية العظيمة، وسط ابتهاج الشعب ومرحه؛ ليعطر بيديه المقياس فى الروضة؛

وهو ما كان يعبر عنه بموكب : تخليق المقياس[٣] ، أى دهانه بالطيب « بالخلوق » .

ومع ذلك ؛ فإن النيل كثيراً ما كان يقصر(٤) عن ارتفاعه العادى ؛ مما يترتب عليه أن لا تجد مصر المياه اللازمة لسقى أرضها؛ فتشرق الأراضى أو لا تزرع. وقد يزيد الأمور استفحالا ، سوء تدبير الحكام وغفلتهم(٥)، عن علاج الأحوال ، مما يؤدى إلى وقوع المجاعات .

فيذكر المؤرخ المقريزى فى كتابه : « إغاثة الأمة بكشف الغمة » ، الذى يتناول تاريخ المجاعات فى مصر ؛ أن مجىء الفاطميين إلى مصر ، كان سببه فى الواقع الضنك من المجاعات ، نتيجة لتقصير النيل ، بحيث أن المصريين كاتبوا المعز لدين الله الفاطمى(٦) ، ليحضر إلى مصر؛ لكى ينقذهم منه . فلما وصل ، اتخذ إجراءات سريعة ، لتخفيف حدة المجاعات ، منها حمل الغلات معه من المغرب ، كما منع[٧] النداء عن ارتفاع النيل قبل الوفاء؛ لما يحدثه ذلك من بلبلة وقلق ؛ بمجرد الإحساس بأن النيل قد لا يصل إلى مستواه فى المقياس ، وما يترتب على ذلك من الإلتجاء إلى التخزين ، وارتفاع الأسعار ، وإنعدام الأقوات .

كذلك كان الحاكم بأمر الله الفاطمى ، هو الآخر تواقاً إلى أن يقطع دابر المجاعات من مصر ؛ حينما سمع أن عالماً فى العراق ، اسمه أبو على ابن الهيثم(٨) ، نبغ فى الهندسة ، وأنه قال: لو كنت فى مصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع ، فى كل حالة من حالاته ، من زيادة ونقص . فأرسل الحاكم إليه جملة من مال ، وحثه على المجىء إلى مصر ، فلما وصلها ، خرج الحاكم بنفسه للقائه، وأمر بانزاله وأكرمه ، وسيّره مع جماعة من الصناع فى طول الإقليم المصرى ، حتى وصل أسوان . ولكن ابن الهيثم، لم يستطع أن يقوم بشىء — بسبب طبيعة أرض أسوان الجرانيتية — واعتذر عن

عجزه ؛ فأبقاه الحاكم عزيزاً مكرماً . فلعل هذا الذى كان يقوله ابن الهيثم عن نيل مصر ؛ هو أول تفكير لإقامة خزان أو سد عالٍ فى أسوان ؛ لحجز المياه وقت زيادة الفيضان أو نقصانه !!

وكانت الدولة تقدّر أن إبعاد شبح المجاعة عن مصر؛ لا يتأتى إلا بتخزين الحبوب . فخصصت فى ميزانيتها كل عام ، مائة ألف دينار (خمسين ألف جنيه) : لشراء محصول القمح من الزراع ؛ فكانت تجمعه فى البيادر ، أى الأمكنة التى يكوم فيها ، ثم ينقل إلى الخزائن السلطانية ؛ فكان هذا الإحتياطى ، فى وقت الحاجة ، يوزع على الطحانين والخبازين . كذلك ، كان للدولة متاجر تملكها لبيع الغلال ، ودكاكين لبيع الخبز ؛ بقصد تثبيت سعرهما ، أو ترخيصهما ؛ كما أنهـــا كانت تعمل على تثبيت أسعار المواد الغذائية الأخرى؛ بإقامة سعر لكل شىء ؛ حتى لا يتلاعب التجار بالأسعار .

ولكن النيل عاد إلى تقصيره سنوات متتالية ، فى عهـــد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى(٩) ، وزاد من استفحال الأحوال ، إضطراب أمور الدولة فى عهده ، بتغيير الوزراء ، حتى بلغ عددهم أربعين وزيراً فى تسع سنوات ، وسها عن تخزين الإحتياطى من القمح ؛ إلا ما يحتاجه القصر ومطبخ الخليفة وحواشيه لا غير ، وخزنت بدله مواد أخرى، مثل الصابون والخشب ، بقصد الإتجار فيها ؛ لزيادة الفائدة . وقد سعى الخليفة إلى علاج نقص الغلال ، بالدخول فى مفاوضات مع مملكة الروم ، مع عداوتها لخلافته ؛ فأرسل إليهم القاضى أبا عبد الله القضاعى ؛ بقصد استيراد أربعمائة ألف أردب من القمح ؛ ولكن الروم رفضت ؛ مما جعل البلاد لا تجد ما تحتاجه من غلال .

وحدث نتيجة لذلك مجاعة شديدة، عرفت باسم: الشدة المستنصرية(١٠)، استمرت من ٤٥٧/١٠٦٥ إلى ٤٦٤/١٠٧١ ، وُصفت بأنه لم يحدث مثلها منذ

أيام يوسف الصديق . وزاد من خطورتها أنه صاحبها انتشـــار الأوبئة والأمراض ، ولاسيما الجدرى ؛ حتى مات منه كثيرون ، وقيل إنه فنى بسببه ثلث أهل مصر . فأقفرت الأسواق ، وكان لا يرى بها أحد ، كما تركت الجند للأرض لزرعها ؛ لعدم وجود الفلاحين ، ونقص عدد القرى من ٣٨٣٤ إلى ٢٠٦٢[11] .

فتعذر وجود الأقوات، وارتفعت الأسعار، فكان رغيف العيش وحده، يباع بـ ١٥ ديناراً[12] (٧½ جنيه)، وأردب القمح بـ ١٠٠ دينار (٥٠ جنيهاً). وقد اضطر الميسورون من الناس ، إلى بيع كل ماعندهم ؛ لقاء كسرة من الخبز ؛ حتى أن حارة سُميت بحارة الطبق ؛ إذ بيعت فيها عشرون داراً لقاء طبق من الأكل[13] . وباع الخليفة نفسه ، كل مافى قصره ؛ بعد أن كانت خزائنه مكدسة بالأموال والتحف ، وكان يقنع بأكل رغيفين فى اليوم ؛ وأن أفراد أسرته نزحوا إلى المناطق المجاورة ، وتشتتوا فى البلاد . وقيل إن رجلا ذهب إلى الحمام ؛ فطلب صاحب الحمام من الرجل أن يخدمه سعد الدولة أو فخر الدولة أو عز الدولة[14] ؛ حيث أنهم كانوا يسعون إلى الحصول على مايمسك رمقهم .

وقد اضطر الناس إلى أكل الميتة من الكلاب والقطط ، والبحث عن شرائها ؛ حتى بيع الكلب بـ ٥ دنانير (٢½ جنيه)[15]، والقط بـ ٣ دنانير (١½ جنيه). وقيل — للمبالغة أو حقيقة — إنه من شدة الجوع ؛ كان طائفة من الناس، يجلسون على السقائف ، وبأيديهم حبال فيها كلاليب — خطافات — فإذا مر بهم أحد من الناس ، ألقوا عليه تلك الحبال ، ونشلوه بتلك الكلاليب ، فى أسرع وقت ؛ فإذا صار عندهم ذبحوه فى الحال ، وأكلوه بعظامه[16] ، أو شرحوا

لحمه وأكلوه، وعُرف الزقاق الذى يجلسون فيه بزقاق القتل ، ولكن الدولة تعقبتهم ، وعملت على شنقهم .

فى هذه الظروف الصعبة، قامت امرأة مصرية(١٧)، يبدو أنها كانت على شىء من الثراء ، إذ وُصفت بأنها من « أرباب البيوتات » ، كانت قد باعت عقداً لها ، يساوى ألف دينار ؛ لتحصل على قليل من الدقيق . ولكن هذا الدقيق نهبه الناس ، وهى فى الطريق ، واضطرت هى أن تأخذ منه مايعجن قرصة ؛ فأخذت هذه القرصة ، ووقفت عند قصر الخليفة ، فى مكان مرتفع ، ورفعتها فى يدها ، بحيث يراها الناس ، ونادت بأعلى صوتها ساخرة : ياأهل القاهرة ، أدعوا لمولانا المستنصر ، الذى أسعد الله الناس بأيامه ، وأعاد عليهم بركات حسن نظره ؛ حتى تقوّمت علىّ هذه القرصة بألف دينار .

فلما سمع المستنصر بذلك ، امتعض له أشد الامتعاض ؛ وإن دفعه أن يفعل شيئاً . فدعا بتجار القمح والخبازين والطحانين فى مجلس عظيم ، وهددهم بقطع الرقاب ، إذا لم يظهر المخزون من الغلال ، فظهرت الغلال فى الأسواق . كذلك شاء حسن حظه ، أن تدارك الله الخلق ؛ وعاد فيض النيل إلى الحد المرموق ، وتوقفت الأوبئة من ذاتها . بل إن أهل الأندلس المسلمين(١٨) ، أرسلوا إلى المصريين سفناً محلوءة بالطعام والغلال ، لمساعدتهم فى محنتهم ؛ فأعاد المصريون بدورهم هذه السفن محملة بالذخائر الحربية ؛ كى يستطيع الأندلسيون الاستعانة بها فى كفاحهم ضد الأسبان .

وبعد ، فإن التاريخ سوف يذكر لمصر فى العصر الحديث أن السد العالى فى أسوان ، كان تحقيقاً لحلم سابق ، وأنه لم يتم إلا بعد أن حشد له شعب مصر كل موارده وطاقاته ، وتمكن من أن يبقر بطن الجبل الجرانيتى ؛ ليبعد عنه شبح المجاعة نهائياً ، سواء ارتفع النيل أو قصر ؛ وهى المجاعات التى لاحقت مصر منذ تاريخها القديم .

الحواشى

(١) صبح الأعشى ، ٣ ص٥١٦ س٥ .
(٢) الخطط ، ١ص ٥٨ س ١٦ — ٢٠ .
(٣) بتفصيل : نفسه ، ١ ص٤٧٦ — ٤٧٧ ؛ صبح الأعشى ، ٣ ص٥١٦ — ٥١٨ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص١٠٤ وما بعدها .
(٤) إغاثة الأمة ، ص١١ .
(٥) نفسه ، ص٤ س٣ .
(٦) اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٦ — ١٤٧ ؛ انظر ، ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين ، ص ٣٦٢ .
(٧) الخطط ، ١ ص٩٧ — ٩٨ .
(٨) ابن العبرى ، ص ٣١٦ وما بعدها ؛ انظر . ماجد ، الحاكم بأمر الله ، ص ٦٤ — ٦٥ .
(٩) ابن ميسر ، ص٦ — ٧ ؛ إغاثة ، ص١٨ — ٢٠ ؛ انظر ، ماجد ، المستنصر بالله ، ص١٥٥ — ١٥٦ .
(١٠) إغاثة ، ص ٢٤ وما بعدها .
(١١) الكنائس والأديره ، ص ١٠ وما يليها ؛ الخطط ، ١ ص ١١٧ س ١٩ — ٢٠ .
(١٢) ابن اياس ، ١ ص ٦٠ .
(١٣) كنز الدرر ، ٦ ورقة ٢١٥ .
(١٤) النجوم ، ٥ ص١٦ س ٦ — ٩ .
(١٥) ابن اياس ، ١ ص ٦٠ .
(١٦) إغاثة ، ص ٢٤ ؛ الخطط ، ٢ ص١٤١ .
(١٧) إغاثة ، ص٢٥ — ٢٦ .
(١٨) الحلل الموشية ، ص٧٢ ؛ انظر . مختار العبادى ، الصقالبة ، مجلة معهد مدريد ، ١٩٥٣ ، ص ٢٦ حاشية (٤) .